

ملاحح تحليل المحادثة في البرهان في علوم القرآن للزركشي

Features of Conversational Analysis in Proof in the

Sciences of the Qur'an by Al-Zarkashi

Caractéristiques de l'analyse conversationnelle dans la

preuve dans les sciences du Coran par Al-Zarkashi

محمد حمراوي
جامعة الجزائر 2

الملخص:

نتناول في هذا المقال قضايا تحليل المحادثة من خلال مباحث وجوه المخاطبات والخطاب التي أوردها الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن". وقد أجمالنا هذه القضايا في محورين: تناولنا في المحور الأول أفعال الكلام غير المباشرة، بالتركيز على أفعال الكلام التواضعية واللاتواضعية. وتطرقنا في المحور الثاني إلى وجوه التأدب، على أساس أن نظرية التأدب من أحدث النماذج اللسانية التي تعنى بتحليل العلاقة البين-شخصية في التداولية، في محاولة لاستخراج تجليات قضايا التداولية الحديثة وخاصة قضايا تحليل المحادثة من التراث العربي.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، المحادثة، أفعال الكلام، التأدب.

Abstract:

In this article, we address conversation analysis issues through the topics of conversations and speeches that al-Zarkashi mentioned in his book "The Evidence in

the Sciences of the Quran". We described these questions in two axes: In the first axis, we dealt with indirect speech acts, focusing on modest and non-modest speech acts. In the second axis, we have approached the aspects of politeness, assuming that politeness theory is one of the last linguistic models that are interested in the analysis of the interpersonal relationship in deliberation, in a attempt to extract the manifestations of modern deliberative issues, in particular issues of conversational analysis from the Arab heritage.

Key words: Discourse, conversation, speech acts, politeness.

Résumé:

Dans cet article, nous abordons les questions d'analyse de conversation à travers les sujets de conversations et de discours qu'al-Zarkashi a mentionnés dans son livre "La preuve dans les sciences du Coran". Nous avons décrit ces questions en deux axes : Dans le premier axe, nous avons traité des actes de langage indirects, en nous concentrant sur les actes de langage modestes et non modestes. Dans le deuxième axe, nous avons abordé les aspects de la politesse, en partant du principe que la théorie de la politesse est l'un des derniers modèles linguistiques qui s'intéressent à l'analyse de la relation interpersonnelle dans la

délibération, dans une tentative d'extraire les manifestations des enjeux délibératifs modernes, en particulier enjeux de l'analyse de la conversation à partir de l'héritage arabe.

Mots clés : Discours, conversation, actes de langage, politesse.

مقدمة

إن أول مسألة ينبغي أن تذكر هنا هي "التأكيد على إزالة الفصل بين النص والمحادثة وإفساح مكان جوهري لتحليل المحادثات. وتعود جذور تحليل المحادثة إلى التحليل العرقي، إذ "نشأ تحليل المحادثة إثر نشأة علم الإثنوميتودولوجيا وتتميز بسمات خاصة به ويهتم بدراسة نظام المحادثة اللساني والاجتماعي بالاعتماد على تسجيل المحادثات وفحصها فحصا دقيقا. ويهتم أيضا بدراسة النظام الداخلي للأدوار الكلامية كما يساعد على معالجة تفاصيل الحياة اليومية"¹.

تتحدث كبريات-أوركينيوني في كتابها "La conversation" "المحادثة" وفي الفصل الأول تحديدا عن المحادثة في سياقها العام، حيث أدرجت أنواع التفاعل والتفاعل اللغوي وغير اللغوي إضافة إلى مختلف أنماط التفاعل اللغوي، لتنتهي بعد ذلك إلى ثلاث خلاصات عن المحادثة هي:

- تشكل المحادثة نمطا مخصوصا من التفاعلات اللغوية.
- وبصورة أدق، تدرس المحادثة عموما كصيغة نمطية عليا أي الصيغة الأكثر اشتراكا والممثلة للوظائف العامة للتفاعلات اللغوية.
- التبادلات التواصلية الحقيقية ليست بالضرورة أنماطا عليا بحتة.

1. الميساوي خليفة، الوسائل في تحليل المحادثة، ص61.

نلاحظ غالبا في مجرى تفاعل معين، انزلاق جنس إلى جنس آخر مثلا من ثرثرة غير لطيفة إلى لائحة احترافية في تفاوض تجاري أو استشارة طبية². "بينما تعتبر استعارات أخرى المحادثة تقاطعا مروريا يشتمل على حركة متعاقبة كثيفة دون أية حوادث اصطدام"³.

I. أفعال الكلام غير المباشرة

يمكن أن نعرف الفعل الكلامي على أنه: "الوحدة الدنيا في النحو التخاطبي، الفعل الكلامي أيضا هو الوحدة الأكثر عائلية بالنسبة للسانيين، إذ إنهم تبنا هذا المفهوم منذ فترة طويلة، هذا المفهوم الذي نشأ في ما يسمى بحقل الفلسفة التحليلية"⁴.

وتضيف كبريات-أوركينيوني: "نتناول كتاب أوستين: "كيف ننجز الأشياء بالكلمات" « how to do things with words » بوصفه الظهور الحقيقي لنظرية أفعال الكلام « speech acts »، انطلاقا من النظرية الأوستينية لأفعال الكلام نجد مفهوم الفعل الإنجازي: الملفوظ الإنجازي هو الملفوظ الذي يكون مدعما ببعض شروط النجاح"⁵.

وحسب كبريات-أوركينيوني نكون أمام فعل كلامي غير مباشر إذا: "عبر متكلم ما بطريقة غير مباشرة، أو حين يقول، أي يفعل عدة أشياء في الوقت نفسه، يخبر عن حدث، ويظهر وجهة ما، وبأكثر دقة (...) حين يقول، أي أنه يفعل شيئا ما تحت ظل شيء آخر"⁶.

1. تجنب الأمر الصريح:

قال الله: ﴿إِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف، الآية: 33)، ولم يقل رب اصرف عني كيدهن. والدليل على

2. Orechioni, la conversation, P08.

3. ورج يول، التداولية، ص112.

4. kerbrat-orechioni, les interactions verbales, t1, p230.

5. kerbrat-orechioni, les actes de langage dans le discours, p34.

6. ibid, p34.

أنه طلب ودعاء لله قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٤﴾ (يوسف، الآية: 34)، قال الزمخشري: "وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدم الدعاء، لأن قوله: ﴿إِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللفظ"⁷.

هذا الفعل يمثل فعلا مهددا للوجه الإيجابي للمخاطب أي ليوسف عليه السلام، على أساس أنه إقرار منه بضعفه وبذنبه المترتب عن ضعفه. وهذا الفعل قد دُعِمَ بإجراءات التلطيف بأن حوّلَ من صيغة الطلب والدعاء إلى صيغة الشرط، وهو بذلك فعل مؤدب وقد أنجز وفق المعايير المفترضة.

هذه قراءة، ويمكن أن يمثل هذا الفعل أيضا فعلا ملطفا للوجه بصفته مدحا للذات الإلهية على أساس أن يوسف عليه السلام يأمل في غوث الله ونصرته. ويشهد هذا الفعل حضور بعض الملطفات: تحويل الصيغة، وهو بذلك فعل مؤدب.

قال الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ يُجِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرصُوعٍ ۝٤﴾ (الصف:4) ولم يقل: قاتلوا في سبيل الله.

ولو قال: قاتلوا لأصبح هذا الفعل فعلا مهددا لوجه المخاطب، ولذلك عدل عن ذلك إلى المدح، وانتقل الفعل من الأفعال المهددة للوجه إلى الأفعال الملطفة للوجه. ولئن كان هذا الفعل لا يشهد حضور الملطفات إلا أنه منجز وفق المعايير المطلوبة.

قال الله: ﴿أَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة 197) على قراءة الرفع أي لا ترفثوا ولا تفسقوا⁸.

وهذا الفعل كسابقه، وهو في حقيقة أمر، إلا أنه عدل إلى غيره. ولو قال: لا ترفثوا ولا تفسقوا، لكان ذلك غليظا لا يخلو من مخاشنة. وتجنب تهديد وجه المخاطب، يكون هذا الفعل تأديبا سلبيا. أما من حيث المبادئ الموجهة للمخاطب،

7. الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، (2009)، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، لبنان، ط3، ص514.

8. الزركشي، البرهان، ج3، ص409.

فإن هذا الفعل يسعى إلى تفضيل المخاطب ضمن توجه سلبي يحاول المتكلم من خلاله ألا يفقد وجهه بشكل علني.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (البقرة: 84) في موضع "لا تسفكوا"⁹.

فهذا على سبيل الخبر لا الإنشاء. وإلا لقال: لا تسفكوا، فهذا أيضا أمر غير صريح. وهو فعل يمثل التأدب السلبي بتخفيف تهديدات وجه المخاطب. ولو قال: لا تسفكوا لأصبح هذا الفعل يمثل توجهها إيجابيا ضمن المبادئ التي تسعى إلى عدم تفضيل المخاطب، وبذلك بإنتاج تهديدات لوجه المخاطب. فالأمر فعل يهدد الوجه الإيجابي للمخاطب.

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الْرِّضَاعَةَ﴾ (البقرة: 233) أي أرضعن. ذكر الرازي أن "هذا الكلام وإن كان في اللفظ خيرا إلا أنه في المعنى أمر"¹⁰.

وقد يكون عدل عن الأمر إلى الخبر، وهو في الحقيقة أمر، لأن الخطاب موجه للوالدات، والوالدات لسن بحاجة إلى أمر بالإرضاع. وتنتهي هذه الصيغة إلى أفعال اللغة غير المباشرة، وهو يمثل تأدبا سلبيا بتجنب تهديدات وجه المخاطب. أما من حيث المبادئ الموجهة للمخاطب، فهذا الفعل يمثل توجهها سلبيا بصفته ينتمي إلى المبادئ التي تسعى إلى تفضيل المخاطب، وذلك لأن المتكلم يحاول الحفاظ على وجهه.

وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: 228) أي تتربصن. قال الرازي: "قوله (يتربصن) لا شك أنه خبر، والمراد منه الأمر"¹¹.

وهذا الفعل أيضا يمثل تأدبا سلبيا من حيث إنه تجنب تهديدات وجه المخاطب، يمثل توجهها سلبيا أيضا ضمن المبادئ الموجهة للمخاطب، على أساس أن المتكلم يحاول ألا يفقد وجهه.

9. نفسه، ج3، ص410.

10. الرازي، مفاتيح الغيب، ج6، ص93.

11. نفسه، ج6، ص126.

وكل هذه الأمثلة جميعا وعلى أساس أنها أوامر وإن كانت مؤدبة، على أساس أنها منجزة وفق المعايير المفترضة إلا أنها تمثل جميعها تأدبا سلبيا من جهة، ومبادئ تسعى إلى عدم تفضيل المخاطب من جهة أخرى، وذلك لأنها تنتمي إلى قائمة الأفعال المهددة للوجه وإن كانت ملطفة. ولا تنتمي إلى قائمة الأفعال الملطفة للوجه.

2. التعريض:

كقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (الأنبياء: 63) لأن غرضه بقوله: «فَسْأَلُوهُمْ» على سبيل الاستهزاء وإقامة الحجة عليهم بما عرض لهم به، من عجز كبير الأصنام عن الفعل، مستدلا على ذلك بعدم إجابتهم إذا سئلوا، ولم يرد بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ (الأنبياء: 63) نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، فدلالة هذا الكلام عجز كبير الأصنام عن الفعل بطريق الحقيقة¹².

فهذا انتقاد لهم وسخرية منهم والانتقاد فعل مهدد للوجه الإيجابي للمخاطب، ولذلك دعم بإجراءات التلطيف ليكون فعلا مؤدبا. وهو يمثل تأدبا سلبيا من حيث إنه يخفف تهديدات وجه المخاطب. أما من حيث المبادئ الموجهة للمخاطب، فإنه يمثل توجهها سلبيا من خلال المبادئ التي تسعى إلى تفضيل المخاطب من خلال محاولة الحفاظ على وجه المخاطب.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر: 18) المقصود التعريض بدم من ليست له هذه الخشية، وأن يعرف أنه لفرط عناده كأنه ليس له أذن تسمع، ولا قلب يعي، وأن الإنذار له كلا إنذار، وأنه قد أنذر من له هذه الصفة، وليست له¹³.

12. الزركشي، البرهان، ج2، ص421.

13. نفسه، ص423.

سنحاول قراءة هذه الآية قراءتين: وسنعتبر في القراءة الأولى أن هذه الآية مدح للذين يخشون ربهم بالغيب. وحينئذ تكون هذه الآية فعلا ملطفا للوجه وقد قصر الإنذار على الذين يخشون ربهم لا غير، وهذا الحصر يمثل إحدى إجراءات التلطيف. ويكون بذلك هذا الفعل فعلا ملطفا للوجه مؤدبا.

أما في القراءة الثانية فسنعبر الآية انتقادا لمن ليست لهم صفة الخشية. وتكون الآية حينئذ فعلا مهددا للوجه الإيجابي للمخاطب. ويكون بذلك قد مثل تأدبا سلبيا من حيث أنه حاول تخفيف التهديد.

وقوله: ﴿أَمَّن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابُ ۗ﴾ (الرعد 19) القصد التعريض، وأنهم لغلبة هواهم في حكم من ليس له عقل¹⁴.

وهذه الآية يصدق عليها كل ما قيل عن الآية التي تسبقها. إذ يمكن أيضا أن تقرأ قراءتين: مدحا لأولي الألباب، ودما لمن ليست لهم هذه الصفة.

3. الاستفهام المراد به الإنشاء:

كقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۗ﴾ (يونس: 3) أي اذكروا. وقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۗ﴾ (آل عمران 20) أي أسلموا، وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (النساء: 75) أي قاتلوا. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَفَرءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۗ﴾ (النساء: 82) وقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ۗ﴾ (المائدة: 91) أي انتهوا¹⁵.

يراد بالاستفهام في جميع هذه الأمثلة الإنشاء، وتحديدًا يراد به الأمر، أو النهي الذي هو في الحقيقة أمر. فقوله: «أفلا تذكرون» إنما هو أمر لهم بإتيان هذا الفعل والذي هو الذكر أو التذكر وكذلك كل الآيات الأخرى.

14. نفسه، ص423.

15. نفسه، ص 443.

وعليه يمكن أن نقول أن كل هذه الآيات تمثل تأديبا سلبيا، من حيث إنها تتجنب تهديد وجه المخاطب، والأمر والنهي المباشران تهديد لوجهه. وأما من حيث المبادئ التي تسعى إلى تفضيل المخاطب، فإن هذه الآيات تمثل توجهها سلبيا، على اعتبار أن المتكلم يحاول من خلال تجنب الأمر المباشر أو النهي المباشر والعدول عن ذلك إلى الاستفهام، ألا يفقد وجهه بشكل علني.

وفي هذه الآيات تحديدا يمكن أن نستخرج استراتيجية لنظرية التأديب اللسانية، هي استراتيجية الاختيارية التي تترك للمخاطب خيار الرفض. وهذه الاستراتيجية تقوم على مفهوم اللاتوجيه أو عدم المباشرة، وهذا ما يمثله العدول عن الأمر/النهي المباشر إلى الاستفهام. فمثلا قوله: «فهل أنتم منتهون» يمكن، افتراضيا، أن يكون جوابه:

أ. انتهيئا، انتهيئا...

أو:

ب. لا، نحن غير منتهون (وهذا حاصل في الواقع، إن قولنا وإن فعلا في جميع الأزمان، لذلك قلنا سابقا "افتراضيا")

وقوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۖ﴾ (المرسلات: 16) أي أهلكناهم. وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۖ﴾ (الضحى: 6) أي وجدك. وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَٰ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ۗ﴾ (يوسف: 89) أي علمتم.

وهنا أيضا نجد استراتيجية ترك الخيار للمخاطب، وإن كان توظيف هذه الاستراتيجية هنا لغرض مغاير هو القوة في المحاجة واللطف فيها في الوقت نفسه. فمثلا في قوله: «ألم نهلك الأولين» يكون للمخاطب الخيار في أن يقول:

أ. لا، لم تهلكوهم، وهذا ما لا يستطيع قوله، لأنه يعلم يقينا أن الله قد أهلكنهم.

أو:

ب. نعم لقد أهلكنم الأولين. وهنا يكون المخاطب نفسه من نطق بالخبر ولا يكون متلقيا له. وهذا أقوى وألطف.

وكذلك في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۖ﴾ فالمخاطب لا يستطيع أن ينكر أنه وجده يتيما فأواه، لأن اليتيم حاصل له هو نفسه، وكذلك قوله: «هل علمتم ما

فَعَلَّمْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ «فإخوة يوسف أيضا لا يستطيعون أن ينكروا علمهم بما فعلوا بيوسف، لأنهم هم من فعلوا، فكيف لا يعلمون ما فعلوا، ولذلك ذكرنا سابقا أن هذه الاستراتيجية تحمل القوة واللفظ معا.

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: 11) أي أقرضوا. فهذا في الحقيقة أمر لهم بالإنفاق. وفيه استراتيجيات للتأدب من نواح عدة. منها أنه عز وجل لم يستخدم كلمة الإنفاق، واستخدم الإقراض، وفيه معنى أنه هذا المال سيعود إلى صاحبه إلى أجل، ومنها أنه عز وجل لم يباشر بالأمر وإنما لمّح لذلك وورى بالاستفهام فقال: (من ذا الذي)، ومنها انه عز وجل جعل القرض لنفسه، والحقيقة أنه لعباده، ومنها أنه عز وجل وصف هذا القرض بالحسن فقال: (قرضا حسنا).

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: 22) أي أحبوا. وقوله: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (التوبة: 13) أي قاتلوا¹⁶.

في هاتين الآيتين أمر للمؤمنين بأن يحبوا أن يغفر الله لهم في الآية الأولى، وأمر لهم بقتال القوم الذين نكثوا أيمانهم في الثانية. غير الأمر ورد بصيغة الاستفهام وهذا ما يمثل التأدب السلبي من خلال تجنب تهديد وجه المخاطب، على اعتبار أن المباشرة بالأمر يهدد وجهه. ويمثل أيضا توجهها سلبيًا ضمن المبادئ التي تسعى إلى تفضيل المخاطب، على اعتبار أن المتكلم يحاول أن لا يفقد وجهه الإيجابي، على أساس أن الأمر يُفقد الوجه الإيجابي للمتكلم.

16. نفسه، ص445.

II. وجوه التأدب

نتناول هنا تطبيقات متنوعة عن وجوه التأدب، على أساس أن نظرية التأدب هي قواعد معيارية في التخاطب، وضرورة اجتماعية، واستراتيجية لمراعاة شريك التفاعل. وقد تناولنا وجوها عديدة منها ما تعلق بنموذج كبريات-أوركيوني كقاعدة التشكك، ومنها ما تعلق بغيره من النماذج كقاعدة التصديق، ومنها ما تعلق بطبيعة التخاطب في اللغة العربية والقرآن الكريم كالإعراض عن صريح الحكم والإبهام وإضافة الخير إلى الله.

1. صيغ التشكك:

كقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٢٤﴾ (سبأ: 24)، وهو يعلم أنه على الهدى، وأنهم على الضلال، لكنه أخرج الكلام مخرج الشك، تقاضيا ومسامحة ولاشك عنده ولا ارتياب¹⁷. وذكر الرازي بهذا الخصوص: "هذا إرشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر هذا الذي تقوله خطأ وأنت فيه مخطئ يغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر وعند اختلاله لا مطمع في الفهم فيفوت الغرض، وأما إذا قال له بأن أحدنا لا يشك في أنه مخطئ والتمادي في الباطل قبيح والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق فنجتهد ونبصر أيننا على الخطأ ليحترز فإنه يجتهد ذلك الخصم في النظر ويترك التعصب وذلك لا يوجب نقصا في المنزلة لأنه أوهم بأنه في قوله لا يشك في أنه هو الهادي وهو المهتدي وهم الضالون والمضلون"¹⁸.

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَدٌ فَآنَا أَوْلَىٰ لِلْعَبِيدِينَ ٨١﴾ (الزخرف: 81) ونحو قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ٢٢﴾ (محمد: 22)، وأورده على طريق الاستفهام، والمعنى: هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبين لكم من المشاهد ولاح منكم في المخايل: ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ٢٢﴾ (محمد: 22) تهالكا على الدنيا؟

17. نفسه، ج3، ص463.

18. الرازي، مفاتيح الغيب، ج25، ص258.

قال الرازي: "وفيه مسائل: ... المسألة الثانية: الاستفهام للتقرير المؤكد، فإنه لو قال على سبيل الإخبار ((عسيتم إن توليتم)) لكان للمخاطب أن ينكره فإذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول أنا أسألك عن هذا وأنت لا تقدر أن تجيب إلا بـ لا أم نعم فهو مقرر عندك وعندني"¹⁹.

وإنما أورد الكلام في الآية على طريق سوق غير المعلوم سياق غيره، ليؤديهم التأمل في التوقع عن يتصف بذلك إلى ما يجب أن يكون مسببا عنه من أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم، فيلزمهم به على أطف وجه، إبقاء عليهم من أن يفاجئهم به وتأليفا لقلوبهم ولذلك التفت عن الخطاب إلى الغيبة، تفاديا عن مواجهتهم بذلك²⁰.

ومنه قوله تعالى حاكيا عن شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفَتَحْبِينَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْآفْتِحِينَ ٨٩﴾ (الأعراف: 89)، فالمعنى لا يكون أبدا من حيث علقه بمشيئة الله، لما كان معلوما أنه يشاؤه، إذ يستحيل ذلك على الأنبياء، وكل أمر قد علق بما لا يكون فقد نفي كونه على أبعده الوجوه²¹. قال الرازي: "ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر ألا ترى إلى قول الخليل عليه السلام (واجنبي وبني أن نعبد الأصنام) وكثيرا ما كان محمد عليه الصلاة والسلام يقول: (يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك وطاعتك) وقال يوسف (توفني مسلما)"²².

وللمعتزلة رأي مخالف في تفسير الآية في عدة وجوه منها "أن هذا مذكور على طريق التباعد، كما يقال: لا أفعل ذلك إلا إذا ابيض القار، وشاب الغراب، فهو على طريق التباعد لا على طريق الشرط"²³.

19. نفسه، ص 65.

20. نفسه، ص 464.

21. نفسه، ص 464.

22. نفسه، ج 14، ص 186.

23. نفسه، ص نفسها.

2. الإعراض عن صريح الحكم:

كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: 100)، أعرض عن ذكر مقدار الجزاء والثواب، وذكر ما هو معلوم مشترك بين جميع أعمال البشر، تفخيماً لمقدار الجزاء، لما فيه من إبهام المقدار، وتنزيلاً له منزلة ما هو غير محتاج إلى بيانه فصار السكوت عن مرتبة الثواب أبلغ من ذكرها²⁴.

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف: 30)، فلم يحدد نوع الثواب وطبيعته، ولو حُدد لكان أقل من غير المحدد أيًا كان.

3. أسلوب الحكيم:

ومن ذلك أجوبة موسى عليه السلام لفرعون، قال الله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۚ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۚ﴾ (الشعراء: 23-24) لأن «ما» سؤال عن الماهية أو الجنس ولما كان هذا السؤال خطأ، لأن المسؤول عنه ليس ترى ماهيته فتبين، ولا جنس له فيذكر، عدل الكليم عن مقصود السائل إلى الجواب بما يعرف بالصواب عند كيفية الخطاب، ولا يستحق الجريان معه، فأجابه بالوصف المنبه، عن الظن المؤدي لمعرفته، لكنه لما لم يطابق السؤال عند فرعون لجهله، واعتقد الجواب خطأ ﴿قال لمن حوله﴾ يعجبهم: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۚ ۲٥﴾ (الشعراء: 25) فأجابه الكليم بجواب يعم الجميع، ويتضمن الإبطال لعين ما يعتقدونه من ربوبية فرعون لهم بقوله: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ۚ﴾ (الشعراء: 26)، فأجاب بالأغلط وهو ذكر الربوبية لكل ما هو من عالمهم نسا فستهزأ به فرعون وخيبه²⁵.

قال الرازي: "اعلم أن فرعون لم يقل لموسى وما رب العالمين، إلا وقد دعاه موسى إلى طاعة رب العالمين ... واعلم أن السؤال بـ "ما" طلب لتعريف حقيقة الشيء وتعريف حقيقة الشيء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة أو بشيء من

24. الزركشي، البرهان، ج3، ص465.

25. نفسه، ج4، ص40.

أجزائها أو بأمر خارج عنها أو بما يتركب من الداخل والخارج. أما تعريفها بنفسها فمحال، لأن المعرف معلوم قبل المعرف، فلو عرف الشيء بنفسه لزم أن يكون معلوماً قبل أن يكون معلوماً وهو محال. وأما تعريفها بالأمر الداخلة فيها فهنا في حق واجب الوجود محال، لأن التعريف بالأمر الداخلة لا يمكن إلا إذا كان المعرف مركباً، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركباً، لأن كل مركب فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه فهو غيره، فكل مركب محتاج إلى غيره، وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته، وكل مركب فهو ممكن، فما ليس بممكن يستحيل أن يكون مركباً، فواجب الوجود ليس بمركب، وإذا لم يكن مركباً استحال تعريفه بأجزائه، ولما بطل هذان القسمان ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود إلا بلوازمه وآثاره ... وأظهر آثار ذات واجب الوجود هو هذا العالم المحسوس وهو السموات والأرض وما بينهما فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون وما رب العالمين إلا ما قاله موسى عليه السلام²⁶.

ومثال الزيادة في الجواب، قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۗ﴾ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۗ﴾ (١٨) (طه: 17-18)، فإنه عليه السلام فهم أن السؤال يعقبه أمر عظيم يحدثه الله تعالى في العصا، فينبغي أن ينبه لصفاتها حتى ظهر له التفاوت بين الحاليين²⁷.

يقول الرازي في هذه الآية: "ثم ههنا سؤالات (الأول) قوله (وما تلك بيمينك يا موسى) سؤال والسؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فيه (والجواب) فيه فوائد ... ثم إنه مزج اللطف بالقهر فإلطفه أولاً بقوله (وأنا اخترتك) ثم قهره بإيراد التكاليف الشاقة عليه وإلزامه علم المبدأ والوسط والمعاد ثم ختم كل ذلك بالتهديد العظيم، تحير موسى ودهش وكاد لا يعرف اليمين من الشمال فقبل له (وما تلك بيمينك يا موسى) ليعرف موسى عليه

26. الرازي، مفاتيح الغيب، ج 24، ص 128.

27. الزركشي، البرهان، ج 4، ص 42.

السلام أن يمينه هي التي فيها العصا، أو لأنه تكلم معه بكلام الإلهية وتحير موسى من الدهشة، تكلم معه بكلام البشر إزالة لتلك الدهشة والحيرة²⁸.

4. إضافة الخير إلى الله:

نتناول هنا مسألة إضافة الخير إلى الله عزّ وجلّ، وإن كان الكل بيده، كقولته تعالى: ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: 07)، ثم قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: 07)، ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم.

وقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ﴾ (آل عمران: 26) ولم يقل «وبيدك الشر» وإن كانا جميعا بيده، لكن الخير يضاف إلى الله تعالى إرادة محبة ورضا والشر لا يضاف إليه إلا إلى مفعولاته، لأنه لا يضاف إلى صفاته ولا أفعاله، بل كلها كمال لا نقص فيه²⁹. "وقوله (بيدك الخير) يفيد أن بيده الخير لا بيد غيره، وهذا ينافي أن يكون بيده غيره ولكن لا ينافي أن يكون بيده ما سوى غير الخير³⁰.

وقوله: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يوسف: 34)، فأضافه إلى نفسه حيث صرفه، ولما ذكر السجن أضافه إليهم فقال: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لَيْسَ جُنْدًا حَتَّىٰ جِئَ﴾ (يوسف: 35)، وإن كان سبحانه هو الذي سبب السجن له، وأضاف ما منه الرحمة إليه، وما منه الشدة إليهم³¹.

ومنه قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَبُهِتَ الَّذِينَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: 80)، ولم يقل «أمرضني».

ولنتأمل جواب الخضر عليه السلام عما فعله، حيث قال في إجابة السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ﴾، قال الله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾

28. الرازي، مفاتيح الغيب، ج22، ص25.

29. نفسه، ص53.

30. نفسه، ج8، ص9.

31. نفسه، ج8 ص53.

غَصَبَا ٧٩) (الكهف: 79)، وقال فيالغلام: ﴿فَأَرَدْنَا﴾، قال الله: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ٨١﴾ (الكهف: 81) وقال في إقامة الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾، قال الله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (الكهف: 82).

قال الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور في كتاب "فك الأزرار عن عنق الأسرار": لما أراد ذكر العيب للسفينة نسبه أدبا مع الربوبية فقال: ﴿فَأَرَدْتُ﴾، ولما كان قتل الغلام مشترك الحكم بين المحمود والمذموم، استتبع نفسه مع الحق، فقال في الإخبار بنون الاستنباع ليكون المحمود من الفعل - وهو راحة أبويه المؤمنين من كفره- عائدا على الحق سبحانه، والمذموم ظاهرا - وهو قتل الغلام بغير حق- عائدا عليه. وفي إقامة الجدار كان خيرا محضا، فنسبه للحق فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾، ثم بين أن الجميع من حيث العلم التوحيدي من الحق بقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ (الكهف: 82)³².

ومنه تقديم فعل البشر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٥﴾ (الصف: 5)، وتقديم فعل الله في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٨﴾ (التوبة: 118)³³.

ومثله قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمِنَّا فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ١٠﴾ (الجن: 10)، فحذف الفاعل في إرادة الشر تأدبا مع الله، وأضافوا إرادة الرشد إليه.

وقريب من هذا قوله تعالى حاكيا عن يوسف عليه السلام، في خطابه لما اجتمع أبوه وإخوته: ﴿وَوَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ (يوسف: 100)، ولم يقل: "من الجب" مع أن الخروج منه أعظم من الخروج من السجن وإنما أثر ذكر السجن لوجهين:

32. الزركشي، البرهان، ج4، ص53، 54.

33. نفسه، ص54.

أحدهما: أن في ذكر الجب تجديد فعل إخوته، وتقريعهم بذلك وتقليع نفوسهم، وتجديد تلك الغوائل وتخيب النفوس. والثاني: أنه خرج من الجب إلى الرق، ومن السجن إلى الملك³⁴.

وقال السهيلي في كتاب "الإعلام" في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾ (مريم: 52) وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ (القصص: 44)، والمكان المشار إليه واحد، قال: ووجه الفرق بين الخطابين أن الأيمن إما مشتق من اليمن، وهو البركة، أو مشارك له في المادة، فلما حكاه عن موسى في سياق الإثبات أتى بلفظه، ولما خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم في سياق النفي عدل عنه إلى لفظ "الغربي" لئلا يخاطبه، فيسلب عنه فيه لفظا مشتقا من اليمن أو مشاركا في المادة، رفقا بهما في الخطاب وإكراما لهما. وهو أصل عظيم في الأدب في الخطاب³⁵.

34. نفسه، ص54.

35. نفسه، ص55.

5. قاعدة التصديق:

نتناول هنا قاعدة التصديق في التخاطب القرآني، غير أنها ليست من قواعد التأدب في نموذج كبريات-أوركيوني، وإنما هي لطف عبد الرحمان. وذلك لأننا نحاول تناول وجوه التأدب في التخاطب القرآني من كل الجوانب. وقد يكون هذا توسيعاً لنموذج كبريات-أوركيوني.

يقوم مبدأ التصديق على غاية التقرب من الغير وهذه الغاية لا تتحقق إلا بتحقيق شرطين هما: الصدق والإخلاص. "وقد اتخذ هذا المبدأ الراسخ في التراث الإسلامي صوراً مختلفة منها، "مطابقة القول للفعل" و"تصديق العمل للكلام"، ونصوغ هذا المبدأ كما يلي:

■ لا تقل لغيرك قولاً لا يصدقه فعلك³⁶.

وبناء على ما ذكرناه سابقاً من أن التخاطب هو أقوال وأفعال ثم تبليغ وتهذيب بعد ذلك، فإن هذا المبدأ "ينبني على عنصرين اثنين:

أحدهما، "نقل القول" الذي يتعلق بما أسمىناه بالجانب التبليغي من المخاطبة، والثاني، "تطبيق القول" الذي يتعلق بما أسمىناه بالجانب التهذيبي منها"³⁷.

قال الله: ﴿قَالَ سَتَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكٰذِبِينَ ۙ﴾ (النمل: 27)، "خاطبه بمقدمة الصدق مواجهة، ولم يقدم الكذب، لأنه متى أمكن حمل الخبر على الصدق لا يعدل عنه، ومتى كان يحتمل ويحتمل، قدم الصدق، ثم لم يواجهه بالكذب، بل أدمجه في جملة الكذابين، أدبا في الخطاب"³⁸.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَٰهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكٰذِبِينَ ۚ ۙ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّن دُبُرٍ فَكٰذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ۚ﴾ (يوسف: 26، 27). ولم يبدأ باحتمال أن يكون قميصه قد من دبر، وإن كان

36. طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكون العقلي، ص249.

37. نفسه، ص249.

38. نفسه، ص56.

معلوما لديه كذبها وصدقه، إلا أنه بدأ يذكر احتمال صدقها. وهذا من باب إرخاء العنان للخصم ليدخل في المقصود بألف موعود³⁹.

6. النزاهة:

قال الله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (النور: 48)، ثم قال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (النور: 50) فإن ألفاظ ذم هؤلاء المخبر عنهم بهذا الخبر أتت منزهة عما يقع في الهجاء من الفحش، وسائر هجاء القرآن كذلك⁴⁰.

فإن هؤلاء المخاطبون دعوا إلى أن يحكم بينهم الله ورسوله، فأعرضوا عن حكم الله ورسوله، ومع ذلك جاء وصف حالهم بأنهم إما في قلوبهم مرض وإما أنهم ارتابوا وإما أنهم خافوا أن يحيف الله ورسوله عليهم، وقد يكون ما أتوه من إعراض يستلزم توبيخا أقسى من هذا، وصلابة أقوى من تلك.

7. خطاب العام والمراد الخصوص:

قال الله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: 173).

قال الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ (البقرة: 13) يعني عبد الله بن سلام.

قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الحجرات: 04). وهو الأقرع بن حابس⁴¹.

فلم يحدد المخاطب، بل ذكره على وجه العموم، وهو معلوم لديه. وذلك رفقا بالمخاطب عن طريق عدم مواجهته بالخطاب. وهذا يمثل تأدبا سلبيا من

39. نفسه، ص 56.

40. السيوطي، الاتقان، ج 5، ص 1782.

41. الزركشي، البرهان، ج 2، ص 351-352.

حيث إنه يحاول تخفيف تهديدات وجه المخاطب، فهو فعل مهدد للوجه، غير أنه أنجز وفق المعايير المطلوبة ودُعِمَ بإجراءات تلطيفية تمثلت في التعميم في موضع التخصيص.

8. خطاب المدح:

قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ البقرة 104. وهذا وقع خطابا لأهل المدينة الذين آمنوا وهاجروا، تمييزا لهم عن أهل مكة، وقد سبق أن كل آية فيها «يا أيها الناس» البقرة 21 لأهل مكة وحكمة ذلك أن يأتي بعد «يا أيها الناس» الأمر بأصل الإيمان ويأتي بعد «يا أيها الذين آمنوا» الأمر بتفاصيل الشريعة⁴². وقوله: «يا أيها الذين آمنوا» فعل ملطف للوجه، وهو يمثل تأدبا إيجابيا.

ومن هذا النوع الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ (الأنفال: 64) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ (المائدة: 41)، ولهذا تجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول، وكذا عكسه، كقوله في مقام الأمر بالتشريع العام: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة: 67)، وفي مقام خاص: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ (التحریم: 01) ومثله: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَ خَالَصَةَ لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأحزاب: 50)، وتأمل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (الحجرات: 01) في مقام الاقتداء بالكتاب والسنة ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ (الحجرات: 02)، فكأنه جمع لهالمقامين: معنى النبوة والرسالة، تعديدا للنعم في الحاليين⁴³.

9. خطاب الواحد بلفظ الجمع:

قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون: 51) إلى قوله: ﴿قَدَرَهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (المؤمنون: 54)، فهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وحده، إذ لا نبي

42. نفسه، ص357.

43. نفسه، ص358.

معه قبله ولا بعده. وقوله تعالى: ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ (النحل: 126)، خاطب به النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (النحل: 127)⁴⁴.

وهذا فعل مهدد لوجه المخاطب، غير أنه أنجز وفق المعايير المطلوبة ولذلك يعد تأديبا سلبيا، من حيث إن الله عز وجل خاطب النبي ﷺ بلفظ الجمع وهو مقصود وحده دون غيره.

وقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ﴾ (الشعراء: 21)، وجعل منه بعضهم قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (المؤمنون: 99) أي ارجعني وإنما خاطب الواحد المعظم بذلك لأنه يقول: نحن فعلنا، فعلى هذا الابتداء خوطبوا بما في الجواب. وقيل ﴿رب﴾ استغاثة و﴿ارجعون﴾ خطاب للملائكة، فيكون التفاتاً أو جمعا لتكرار القول، كما قال: "قفا نبك". وقال السهيلي: " هو قول من حضرته الشياطين وزبانية العذاب، فاختلط ولا يدري ما يقول من الشطط، وقد اعتاد أمرا يقوله في الحياة، من رد الأمر إلى المخلوقين". ومنه قوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ (الزخرف: 32) وهذا مما لا تشريك فيه⁴⁵.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (النور: 26) يعني عائشة وصفوان. وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: 105)، والمراد بالمرسلين نوح، وقوله: ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (التوبة: 66) قال قتادة: " هذا رجل كان يمالئهم على ما كانوا يقولون في النبي صلى الله عليه وسلم، فسماه الله سبحانه وتعالى طائفة، وقال البخاري "ويسمى الرجل طائفة"⁴⁶.

10. خطاب العين والمراد غيره:

كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الأحزاب: 1)، الخطاب له والمراد المؤمنون: لأنه صلى الله عليه وسلم كان

44. نفسه، ص361.

45. الزركشي، البرهان، ص362.

46. الزركشي، ج2، ص364.

تقياً، وحاشاه من طاعة الكافرين والمنافقين. والدليل على ذلك قوله في سياق الآية: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ (الأحزاب: 2)⁴⁷.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (يونس: 94)، بدليل قوله في صدر الآية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شكٍّ مِّنْ دِينِي﴾ (يونس: 104)، ومنهم من أجراه على حقيقته وأوله، قال أبو عمر الزاهد في "الياقوتة": "سمعت الإمامين ثعلب والمبرد يقولان: معنى ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ﴾ أي قل يا محمد للكافر: إن كنت في شك من القرآن فسأل من أسلم من اليهود، إنهم أعلم به من أجل أنهم أصحاب كتاب. وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ (التوبة: 43)، قال ابن فورك: معناه وسع الله عنك على وجه الدعاء، و﴿لم أذنت لهم﴾ تغليظ على المنافقين وهو في الحقيقة عتاب راجع لأبيهم، وإن كان في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم، كقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ (يونس: 94)⁴⁸.

وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١﴾ (عبس: 1)، قيل إنه أمية، وهو الذي تولى دون النبي صلى الله عليه وسلم، ألا ترى أنه لم يقل: عبست! وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتْ ۖ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٦٥﴾ (الزمر: 65) وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝١٤٥﴾ (البقرة: 145)⁴⁹.

وبهذا يزول الإشكال المشهور في أنه: كيف يصح خطابه صلى الله عليه وسلم مع ثبوت عصمته من ذلك كله؟ ويجاب أيضا بأن ذلك على سبيل الفرض، والمحال يصح فرضه لغرض. والتحقيق أن هذا ونحوه من باب خطاب العام من غير قصد شخص معين.

47. نفسه، ص 367.

48. الزركشي، البرهان، ص 367.

49. نفسه، ص 167.

وعكس هذا أن يكون الخطاب عاما، والمراد الرسول، قوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٠﴾ (الأنبياء: 10)، بدليل قوله في سياقها: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٩٩﴾ (يونس: 99)⁵⁰.

وأما قوله في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ٣٥﴾ (الأنعام: 35)، فليس من هذا الباب. قال ابن عطية: " ويحتمل أن يكون التقدير: ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ في ألا تعلم أن الله لو شاء لجمعهم. ويحتمل أن يكون يهتم بوجود كفرهم الذي قدره الله وأراده". ثم قال: ص ويظهر تباين ما بين قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ وبين قوله عز وجل لنوح عليه السلام: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ (هود: 46) وقد تقرر أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء. وقال مكي والمهدوي: الخطاب بقوله: ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته، وهذا ضعيف ولا يقتضيه اللفظ. وقال قوم: وَقَرَّ نوح عليه السلام لسنَّه وشبيهه. وقال قوم: جاء الحمل على النبي صلى الله عليه وسلم لقربه من الله ومكانته، كما يحمل العاتب على قريبه أكثر من حملة على الأجانب. قال: والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجئ بحسب النبيين، وإنما جاء بحسب الأمر من الله، ووقع النبي عنهما والعقاب فيهما⁵¹.

11. خطاب التحبيب:

نحو قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢﴾ (مريم: 42)، وقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ٩٤﴾ (طه: 94).

في الآية الأولى يلوم ابراهيم عليه السلام أباه أزر عن عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، وفعل اللوم هذا يمثل فعل تهديد لوجه المخاطب، غير أنه مدعم بإجراءات تلطيفية تتمثل في قوله: يا أبت. وعليه فهو يمثل تأدبا سلبيا.

50. الزركشي، البرهان، ج2، ص368.

51. الزركشي، البرهان، ج2، ص368.

وفي قوله: «يَبْنُوْمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي» طلب من هارون لموسى أن لا يأخذ بلحيته وبرأسه، ولوم له على هذا الفعل. فهو فعل مهدد لوجه المخاطب، وقد لُطِّفَ قَوْلُهُ: «يَبْنُوْمْ»، فقد نسبه إلى أمه وهو شقيقه، ليستعطفه ويستجديه. ولذلك هو يمثل تأدبا سلبيا. لأنه أنجز وفق المعايير المطلوبة.

ويجب التأكيد أن هذا البحث ليس تطبيقا أو محاولة تطبيق نموذج كربات-أوركيوني على القرآن الكريم، لأننا إن طبقناه، أو أردنا تطبيقه، صار هذا النموذج أساسا للقرآن الكريم، والواقع يفرض أن يكون القرآن الكريم أساسا لنموذج أركيوني ولغيره من النماذج. ولكن هذه الورقة البحثية سبيل إلى النظر إلى المحادثة في القرآن الكريم بوصفه معيارا لما يجب أن تكون عليه أنماط المحادثات.

المراجع:

باللغة العربية:

- فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، لبنان، 1981.
- أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمان ابن أبي بكر السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنية، المملكة العربية السعودية، (د.ت.).
- فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، لبنان، 1981.
- الزمخشري أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، لبنان، 2009.
- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكون العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998.
- يول جورج، التداولية، تر: قصي العتايي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، 2010.
- الميساوي خليفة، الوصائل في تحليل المحادثة، دراسة في إستراتيجيات الخطاب، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2012.

باللغة الأجنبية:

- Kerbrat-Orecchioni.C, les interactions verbales, t1, Paris, Armand colin, 1990.
- Kerbrat-Orecchioni Catherine, la conversation, Paris, seuil, 1996.
- Kerbrat-Orecchioni.C, les actes de langage dans le discours, Paris, Nathan, 2001.